مصر من تسعين سنة

(٢)

الاعراس المصرية

تقدمنا الموكب مسافة طويلة في طرق متعرجة وحارات ضيقة وكنا نتأثر مسيره على اصوات الطبول والرباب الى ان لحقنا به في منعطف غير نافذ فوجدناه مزيناً ومضاء بالمصابيح حتى مدخل بيت العريس والكلاب الكثيرة تحتك بارجلنا كأنها تزاحمنا الى الوليمة . فدخل الموكب في رحبة واسعة عند مدخل الدار والطبول تقرع والرباب تصدح فلعب المصارعون بالسيوف ووقف حملة المشاعل وحملة الشموع حولهم ثم حملة القماقم والمزاهر وصفوف النخل كأنهم قادمون لاستقبال اغسطس قيصر داخلاً الى رومية ظافراً تحت اقواس النصر . ورأيت بعضهم حاملاً اعواداً طويلة في اعلاها الراح كبيرة من النحاس عليها صفوف من السلاسل والخرز والزجاج

ولما مرّت العروس تقدمتها المغنيات المعروفات بالعالمات والراقصات الغوازي . فالاوليات مخجبات وفي ايديهن الدفوف أما الغوازي فكن يرقصن مكشوفات الوجوه والسواعد والنهود وعلى اوساطهن مآزر زاهية مزركشة ومتمنطقات بالقصب المتدلي وعلى رؤوسهن طراقي مجللة بالقطع الذهبية يقال لها غوازي وربما اتخذن هذا الاسم من تلك النقود الذهبية المضروبة على عهد مماليك الغز . وكن صقيلات الوجوه مزججات الحواجب والعيون بقويات الآذان والانوف وعلى صدورهن وسواعدهن نقوش غريبة من الوشم الازرق وفي اصابعهن الصنوج كثيرات الخلاعة في رقصهن والرجال والغلمان حولهن يقهقهون ضحكاً وسروراً . ثم دخل صف الخدم والخصيان وكلهم زنوج يحملون الصواني والسلال وعليها ثياب العروس وحلاها المهداة اليها من عريسها واقاربها . وتلاهم المدعوون وهم قسمان قسم الوجهاء والاعيان وكلهم بثياب فاخرة زاهية وقسم اهل البلد والفلاحين وكلهم بثياب سوداء واحذية صفراء . ولما دخلت العروس امتلأ المكان من زغاريد النساء وقد تبينتها عن كثب فاذا هي مشحة بشال من الكشمير غالي الثمن وإزار مجرّ ذيوله وراءها وعلى وجهها برقع ابيض تقودها امرأتان او تجرانها من تحت ابطيها جرّاً ووراءها عدد من الجواري يرفعن ذيول ثوبها . ثم دخلت الى خدرها في الغرف العلوية من الدار بين زغردة النساء واغاني العالمات

اما المدعوون فبقوا في حوش الدار وهناك مصطبة عالية حول الغرف والمقاعد والموائد

يقال لها « سلاملك » ثم دار قوم بايديهم اباريق الخزف يوزعون شراباً حلواً على الجالسين في كؤوس من المعدن او الخزف . ورأيت موزع الشراب على قيد خطوات مني فخشيت ان ينفضح امري اذا كلمني ولا اعلم بماذا أجيب وكان ترجماني عبدالله قد ابتعد عني فاشرت اليه ان يدنو مني فعل وقلت لهُ : اذا جاء دوري في الشراب ماذا افعل وبماذا اجيب ؟ قال « قل لهُ كثر خيرك » . ولما رآني لا احسن لفظ هذه الكلمة الثقيلة على لساني قال لي « قل لهُ طيّب »

وقد علمت فيما بعد ان كلمة « طيب » ذات معانٍ كثيرة تكفي لان تكون جواباً لمسائل مختلفة خليقة بامة عادتهُ خاضعة لحكم استبدادي مطلق تحذر عثرات اللسان . فكلمة « طيب » عندهم تعني « ان الشيء حسن » واحياناً تعني « اني طوع امرك » او « اشكرك » وغالباً تفسر بكلمة « نعم » واظهار الرضى والقبول . فالتقمت نطقها وكنت اتمم لفظ الطاء لئلاَّ الفظها « تيّب » . وتذكرت وقتئذٍ ان قد سبقني السائح بلزوني الى استعمال هذه الكلمة عند مجيئهِ الى مصر حتى ظهر امرهُ يوماً ما وهو داخل احد الجوامع وكانت حياتهُ معرضة للخطر حتى اضطر ترجمانهُ ان يدافع عنهُ بقولهِ : انهُ انكليزي مسلم لا يتقن التكلم بالعربية

وكان ابو العريس واخوتهُ يستقبلون المدعوين ويرحبون بهم وقد نصبت الموائد في قاعة كبيرة فجلس القوم القرفصاء حولها وكل منهم يمد يده الى الطعام ويأكل بيده رزاً ولحماً فلم اجسر ان اشترك معهم في هذه الوليمة لئلاَّ اخطئ مرة في مخالفة عاداتهم وينفضح امري لديهم . وكان جمع من البرابرة يرقصون اثناء الوليمة في حوش الدار وقد عقدوا حلقة في وسطها عالمة تغني وتضرب على الدف . وغازية اخرى تقرع طبلاً صغيراً يقال لهُ « دربكة » ووراء الحلقة جوقة اصحاب الزمور والرباب والعيد والخدم بايديهم القناقم والمزاهر دائرين حول المدعوين يرشونهم بماء الزهر والورد وشممت روائحهُ العطرية لما انتثر رشاشهُ على وجهي ولحيتي . وبعد برهة وقف امامي رجل ببزة نظيفة حسنة وقال لي بلهجة لطيفة وتأدب كلاماً لم افهم معناهُ فاجبتهُ بكلمة « طيب » مفخمة الطاء . ثم تجاوزني وكلم غيري فالتفتُّ نحو عبد الله وسألتهُ ماذا يريد مني هذا الرجل قال « هو صاحب البيت يدعوك للدخول الى المائدة » . فرأيت ان اخرج خوفاً من افتضاح امري . وفي الطريق قال لي ترجماني :

« لو لبثت عندهم الى ما بعد الطعام لرأيت التمثيل . فقلت لهُ ايمثلون هنا روايات « كوميدي » ؟ قال نعم روايات القره قوز

وقد علمت ان هذه الحفلات تلبث سبع ليالٍ لها اسماء خاصة بها منها ليلة الحنّاء وليلة الحناء وليلة الهدايا وليلة الزينة وليلة الدخلة ويقام فيها كلها المراقص والاغاني وتولم الولائم. وقال لي عبدالله ان قد فاتني في هذه الليلة رؤية الذبيحة وهي خروف او جاموس يذبحهُ العريس على عتبة الدار عند ما تجتازها العروس حتى يلطخ ثوبها بدم الضحية تفاؤلاً بالسعادة والهناء. واحياناً يصنع قالب او تمثال من السكر ويوضع في وسطهِ زوجا حمام او يمام فعند دخول العروس الى خدرها يحطم التمثال السكري ويطير الحمام في الفضاء. وربما كانت هذه العادة من تقاليد المصريين القدماء

***

ثم دخلت الى غرفتي في الفندق وانا افكر فيما رايت هذه الليلة بين قوم يرون الزواج اهم حادث في الحياة فينفقون على حفلاتهِ الالوف من الذهب. ولا يظن ان ذلك قاصر على الاغنياء بل يشمل الفقراء ايضاً وهم لا يقصرون عن مضاهاة الاغنياء في اقامة معالم الزينات. والفرق بين الفئتين أن الاغنياء ينفقون من فضلتهم واما الفقراء فمن اعوازهم اذ يستدينون المال لاقامة الولائم واحضار المغنيات والغوازي وجوقات الموسيقيين والطبالين والزمارين وارباب الاشاير وبعضهم يضطر الى استئجار ثياب اقاربهِ وجيرانهِ

والعروس المصرية سر من الاسرار لا يرى احد هيأتها ولا يعلم احد من المتفرجين ولا الاصدقاء والاقارب ما هي عليهِ من القبح او الجمال سوى عريسها الذي لا يراها الاَّ ليلة دخولهِ عليها

الترجمان

ترجماني عبد الله رجل ذكي الفؤاد بسيط مخلص الخدمة ولا عيب فيهِ سوى انهُ يحسب نفسهُ كبيراً شريفاً مساوياً لي. وهو نوبي الاصل يتكلم الانكليزية والفرنسوية والعربية بسهولة ويقتصر على خدمة السياح الانكليز وهذا سبب ترفعهِ عن خدمة غيرهم من الافرنج. التقيت بهِ في الاسكندرية على ظهر السفينة ليونيداس وهو ضخامي اللون يلبس ثوباً ابيض وشملاً من لونهِ فهو في الواقع وسط بين المصري والنوبي. واذنهُ مثقوبة فيها قرط من الفضة. فاتفقت معهُ على ان اجعل لهُ راتباً مقدارهُ عشرون غرشاً في اليوم مدة الستة الاشهر التي اقيمها في القاهرة

ولما وصلنا القاهرة نزلت في فندق فرنسوي رغماً عن ارادة عبد الله اذ كان يريد ان ياخذني الى الفندق الانكليزي واخيراً قال لي اشير عليك ان تستأجر منزلاً خاصاً وتأتي بخادم

يقوم باحتياجاتك وانا اقيم معك دائماً وبذلك تقتصد مبالغ كبيراً من نفقات الفندق . فرأيت ما قالهُ صواباً فوافقتهُ وعهدت اليهِ في استئجار منزل خاص في حي الافرنج او حي الاقباط

والتقيت في فندق دومرج الذي نزلت فيهِ (وهو في درب الجنينة) بمصوّر فرنسوي حميد الخصال دمث الاخلاق لطيف المعشر الاّ ان سمعهُ ثقيل وهو ماهر في الرسم اتخذ في الفندق غرفتين لنومهِ وللاشتغال بصناعتهِ فيجمع بعض الفتيات المصريات والنوبيات باثمان اليمون والبرتقال والقصب ويأخذ رسومهنّ على اشكال مختلفة . و بعضهن لا يرضين ان يرفعن الحجاب عن وجوههن حياء او مراعاةً للآداب الاسلامية . فيضطر ان يصورهن وهن محجبات . وكان بين نزلاء الفندق كولونيل فرنسوي وابسقف ومثلة لغات وعندبان من بومباي احدهما خادم للآخر . ويظهر من اكلهما اللحوم انهما من الهنود المسلمين وكنت اود البقاء في هذا الفندق لوفرة وسائل الراحة فيهِ الاّ اني فضلت السكنى في احد المنازل بين الوطنيين للاختلاط بهم وتعوّد المعيشة الشرقية

استئجار المنزل

قال لي عبد الله ان في حي الاقباط والارواام كثيراً من البيوت فمنها ما هو ذو طبقتين ومنها ما هو ذو ثلاث وداخلها حوش او حديقة ولا تتجاوز اجرتها السنوية ثلاثمائة غرش . وارائي في اليوم التالي بيوتاً عديدة لاختار واحداً منها فرأيت بيتاً بديع الشكل داخلهُ حوش مرصوف بالبلاط وفي وسطهِ بركة ماء حولها قصاري الورد والرياحين وقاعات واسعة وقد زخرفت جدرانها وسقوفها بالنقوش وفي صدرها اعمدة من رخام ومعاطب فوقها المقاصير والمياه تفيض من بركة كبيرة تسقي الحديقة المغروسة بالاشجار المظللة . وهذا البيت يشبه قصور البندقية وجنوى ومع كل ذلك الرواء والزخارف لم ارهُ صالحاً للسكن من الوجهة الصحية لان نوافذ مقاصيرهِ وغرفهِ لا تطل الاّ على الحوش الداخلي فالهواء فيهِ محصور ولا يصل اليها نور الشمس ولا ينفذها النسيم الشمالي المنعش للابدان ولذلك ترى اكثر سكان القاهرة ضحايا الاجسام مصابين بفقر الدم صفر الوجوه من رطوبة التربة ومن نتن مياه الخليج الجاري في وسط المدينة وكثرة المستنقعات في الشوارع . وهذه الرطوبة الدائمة جعلت اكثر الاهالي معرضين للرمد وامراض العين وقلما ترى مصرياً سليم العينين هذا فضلاً عن الاوحال والاقذار المتراكمة في الطرق والشوارع . وفي القاهرة كثير من خرابات القصور العظيمة القديمة العهد كانت لامراء المماليك وسلاطين العصور السالفة واكثرها كالاطلال البالية وتستأجر باجرة زهيدة

وبعد التفتيش وجد عبد الله منزلاً صغيراً صالحاً لي كان قد استأجرهُ قبلي سائح انكليزي واقام فيهِ مدة وجعل لهُ منافذ بحرية بدرفات من زجاج . والنوافذ التي على هذا الشكل نادرة . وهذا البيت في حارة النصارى وصاحبتهُ امرأة قبطية إرملة غنية لها عشرون بيتاً غيرهُ بعضها ملك لها وبعضها مكتوب باسمها وهو في الحقيقة ملك بعض الافرنج لان الاجنبي لا يمكنهُ ان يتملك في مصر حسب القوانين التركية ولا يمكنهُ ان يقتني باسمهِ ارضاً وعقاراً. وهذا البيت ملك قونسلير انكليزيا مكتوب باسم هذه الارملة القبطية تؤجرهُ على حساب صاحبهِ . وبعد المساومة على الاجرة بواسطة عبد الله وشيخ الحارة كتبنا عقد الايجار بمبلغ ثلاثمائة غرش في السنة تدفع على ثلاثة اقساط ولم استلم مفتاح البيت الاَّ بعد ان دفعت مبالغ كثيرة بصفة « بقشيش » الى شيخ الحارة وكاتب العقد وشيخ الخفر وحافظ القسم وكاتبهِ وخادمهِ واخيراً استلمت المفتاح من قومسان الارملة بعد ان نقدتهُ « بقشيشهُ »

ما هو مفتاح البيت ؟ هو خشبة طويلة في طرفها ستة مسامير وفي الباب شبه صندوق مستطيل يدخل المفتاح فيهِ فتلتقي المسامير التي فيهِ بمسامير أخرى متحركة في جوف الصندوق فترفعها و يفتح الباب . ويقال لها في مصر « الضبَّة » . ولكن الصعوبة في حمل هذا المفتاح اذا خرجت من المنزل ولما لم اقدر ان اضعهُ في جيبي اضطررت ان اشكه في وسطي كما يفعل الاهالي كالبكتاري او الباني يحمل في نطاقهِ غدارتهِ . ولكن الحصول على المفتاح واستئجار البيت ليسا كل ما يلزم لكنهُ بل يجب ان توضع فيهِ الامتعة والحاجيات الضرورية والفرش والاثاث اللازم . فأخذني ترجماني الى السوق فاشتريت القماش والقطن واحضر لي النجدين فصنعوا لي مراتب الاسرة واللحف والوسائد والمقاعد وفي اليوم التالي احضر لي صانعي الجريد فصنعوا لي اسرة للنوم ومقاعد من جريد النخل وهي على خفتها متينة الصنع . ثم ذهبنا الى السوق فاشتريت الحصر والسجاجيد والستائر للنوافذ وعرَّفني ترجماني بتاجر يهودي يدعى يوسف يحسن الفرنسوية فاشتريت من عندهِ كل هذه الامتعة والاقمشة وقال لي عبدالله ان صديقهُ هذا متهاود في البيع صادق في المعاملات ولكني لا أشك في ان الاثنين اتفقا على سرقتي

وفي اليوم التالي زارني يوسف هذا فقدَّمت لهُ القهوة والنارجيلة (الشيشة) وقال لي ان لهُ بستاناً غرست فيهِ اشجار التوت لتربية دود الحرير وكل سنة يخرج مقداراً كبيراً من الشرانق

وكان البيت الذي استأجرتهُ في آخر حي الاقباط على مقربة من باب الحديد (ربما كان

في الدرب الايرهيني) يرى الخارج منهُ في ارض تخترقها ترعة وحولها الغيطان يجتاز السالك فيها فوق جسر من خشب على طريق شبرا . وخارج باب الحديد عند صف الغيطان محطة لمئات من الحمّارة يؤجرون الحمار بقرش واحد مسافة ساعة من البلدة . ووراء السور جامع (ربما كان جامع اولاد عنان) فوقهُ مأذنة عالية وكل ليلة اسمع من نافذة غرفتي صوت المؤذن . ففي الليلة الاولى انتبهت على صوته وهو ينشد بصوت شجي « اشهد ان لا اله الا الله » وسألت ترجماني عن جملة أخرى كان يرددها المؤذن فسّرها لي بقولهِ « الصلاة خيرٌ من النوم » فابتدأت الانشاد في سحر الليل وحسبت نفسي كأني في حلم . وكل ما رأيتهُ في مصر من الغرائب والمدهشات حقق لي حكايات الف ليلة وليلة

كنا نقرأ في قرنا تلك الحكايات فنحسبها من قبيل الاقاصيص الخرافية فاذا هي حقيقة فنفس الانسان تجول في النوم في عالم الخيال والتصورات و يعتقد الشرقيون ان الارواح تحوم حول النائم فتذهب روحهُ معها الى عالم الخيالات معرضة للهواجس والانزعاجات . اليس بالاحرى ان نضع انفسنا عند ذهابنا الى النوم تحت حراسة الله خالقنا الذي لا ينعفل ولا ينام كما قال المؤذن

عقدة الزواج

في صباح الليلة الثانية حضر عبدالله وايقظني باكراً وقال لي ان شيخ الحارة اتى يطلب مقابلتي فاذنت لهُ فدخل الى غرفتي وهو شيخ جليل ابيض اللحية فتقدمت لهُ القهوة والشبق حسب العادة وجلس ساعة ولم ينطق ببنت شفة الى ان شرب القهوة واخيراً قال لي عبدالله مترجماً كلامهُ :

يقول لك انهُ حضر ليرجع لك الدراهم التي دفعتها اجرة البيت فدهشت من قولهِ وسألتهُ عن السبب فقال ان صاحبة البيت تجهل امرك وآدابك وعادات قومك فقلت لهُ وهل تظن ان آدابي او آداب قومي غير حميدة . قال انها لا تقصد ذلك ولكنها كانت تحسبك متزوجاً او عندك امرأة تخدمك فاجرتك البيت فقلت لهُ ولكني غير متزوج . اجاب لا يعنيها هذا الامر وانما يهمها ان تسكن مع امرأة لان سكن العزاب في البيوت ممنوع وخصوصاً بين العائلات وفي بيت تطل نوافذهُ على نساء الجيران . وهذه العادة قاعدة عامة متبعة بين المصريين بكل صرامة وتدقيق . فقلت لشيخ الحارة وماذا تريد ان افعل الآن . قال يجب ان تخلي البيت او تأتي بامرأة تسكن معك . قلت وهل من الآداب ان اسكن مع امرأة غير متزوج بها ؟ فاجابني جواباً غريباً يحسبهُ مقنعاً . قال « انت اتفدي (وعندهم ان كل من

كان ليس بتاجر ولا فلاح ولا صاحب مهنة هو افندي اي صاحب ملك او مأمور حكومة) ولا يليق بك ان تسكن وحدك في منزل مثل هذا وانت في سعة من العيش فيجب ان تقوم بعيش امرأة او اكثر حسبما تجيزه دياناتك او ان تشتري جارية تقوم بخدمتك فاذا لم يتزوج الرجال بالبنات فانهن يبقين عالة على والديهن »

فرأيت شيئاً من الحكمة والصواب في هذا الكلام . ثم امهلني شيخ الطارة يومين لمشاورة اصدقائي لان مسئلة الزواج عندنا هامة يجب التروي فيها وهي من اهم مسائل الحياة والهيأة الاجتماعية وادلها . اما في الشرق فالمرأة تؤخذ وترد كالمتاع

في المقالة الثالثة وصف الزواج عند الاقباط وسوق الجواري وما جرى لهذا السائح من النوادر ديتري نقولا

اكوات العراق

كتب حضرة محمد افندي الهاشمي البغدادي نزيل القاهرة الآن رسالة الى المقتطف بالعنوان المتقدم . قال :

اسمع كثيراً في الجرائد المحلية لفظ كوت ولا اظن كثيرين من القراء يفهمونها فانها من اصطلاحات العراق ولذلك اريد اكتب شيئاً عن اكوات العراق لعل فيها ايبنة فائدة فاقول

كلمة كوت مشهورة متعارفة في العراق ونجد وما جاورهما من البلاد العربية وبعض بلاد العجم والهند الساحلية وقد شاع استعمالها على الالسنة حتى صرفوها تصريف الكلمات العربية الاصلية فصغروها وجمعوها فقالوا كويت واكوات وبالمصغر سميت البلدة التي على ضفاف البحر الفارسي او خليج البصرة

وهذه الكلمة توارثها العراقيون عن اباءهم البابليين والكلدانيين وكان الاشوريون يستعملونها كما توارثوا اشياء اخرى باقية فيهم الى الآن . وجاءت لفظة كوت في سفر الملوك ١٧ : ٢٤ « واتى ملك اشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفرائيم » ويقال فيها كوثا وكوثى ربّا وهي المدينة الشهيرة مدينة ابرهيم — تعرف اليوم بتل ابرهيم او جبل ابرهيم

وهي تطلق عندهم على البيت المربع المبني كالحصن والقلعة وغيرهما مما يبنى حاجة ويبنى حوله بيوت صغار حقيرة بالنسبة اليه ويكون ذلك البيت فرضة للسفن والبواخر ترسو عنده لتكمل منه ما ينقصها من الفحم والزاد وما اشبه ذلك من حاجات السفر